عن فيلم "مَقاتِل - Massacre"(*)

حـذارِ انفعـال المشاهديـن

منى فياض

عندما انتهيت من مشاهدة فيلم "مَقاتِل- Massacre" لم اعرف ماذا افعل بالمشاعر التي انتابتني؟ اين اصرف هذا الانفعال الكثيف والرفض والقرف الذي يجتاح المشاهد متسائلاً لماذا هذا العنف ومن اين؟ كيف امكن حدوث ذلك ونحن على مقربة؟ يجعلك تجلس لإكثر من عشر دقائق جامدا في مكانك متأملا! وماذا بعد؟

هذا الفيلم الذي وثّق مقابلات مع بعض مرتكبي مجازر صبرا وشاتيلا (الذين علينا شكرهم لقبولهم القيام بهذه الشهادة بالرغم من كل شيء) مؤلم ومثير للشجون وهو نموذج للنتاج الفني او التوثيقي او البحثي او اي نتاج آخر سوف يتناول الحرب الأهلية اللبنانية وبعض ممارساتها، والذي يتوجب علينا أن نتعامل معها بكل حذر وروية ووعي.

لقد شكلت جلسة حضوري الفيلم نموذجا لما قد يثيره مثل هذا النتاج من ردود فعل متباينة، ومنها ما قد يعيدنا الى دوامة مشاعر الانتقام لما جرى، بدل ان نأخذ المسافة اللازمة ونعيد النظر في كل هذا التاريخ المثقل كي نستطيع الخروج منه والتأسيس لمرحلة جديدة. ففي نهاية الفيلم وعندما كان القاتل يتكلم ببرود عن كيفية قتله بالسكين ضحاياه الامر الذي يجده مختلفا عن مجرد القتل بواسطة اطلاق رصاصة وارداء الضحية هكذا ببساطة ومن دون ان يتعذب، بينما في حالة السكين يذيقه الموت مرات عدة ويجعله يتعذب، وكأنه يقول ان هكذا يجب ان يكون الموت الانتقامي، موتا اصليا وكاملا، لم يحتمل احد المتفرجين هذا المشهد واطلق سبابا للقاتل وخرج غاضبا خابطاً الباب ببطولة، ولو ان الرجل كان امامه لربما ارداه بسكين مقابل سكينه.

كذلك العديد من الاسئلة التي طرحت وطالبت (كما هي العادة دائما) بجعل الفيلم مادة نضالية، بالمعنى الثوري، او علاجية لسكان صبرا وشاتيلا، وأين هم؟ وكأن المجزرة ملكية حصرية للضحايا وممنوع ان نعمم الدرس المستقى منها من اجل التحذير وخصوصاً لمن لم يعرفها. كذلك تمت الاشارة الى عدم الدقة في جعل حرب احتلال اسرائيل هي للرد على مقاومة ياسر عرفات او ممارساته، الامر الذي دعا المخرج، بحق، الى عدم الخلط بين الشعب الفلسطيني كضحية وممارسات القيادات الفلسطينية التي يتوجب ايضاً ادانة الكثير منها ومراجعة سلوكها خلال وجودها في لبنان. وهو أشار الى ان مثل هذا السلوك المدان يتجدد الآن، واخرج عنوان جريدة "النهار" عن تسلل اعداد كبيرة من المسلحين الفلسطينيين الى لبنان والى البقاع، حيث لا نعتقد ان وجودهم هو من مصلحة لبنان او لدعم مسيرته السلمية.

كذلك تعرض المخرج الى العتب، كيف استطاع ان يسأل القتلة هكذا بهدوء وبصوت بارد "كيف استطعت القيام بذلك؟" وكأن هناك اتهاماً ضمنياً للمخرج بالتعاطف مع القاتل... وكأن هناك افتراضاً ضمنياً يتطلب منه ان يرفع صوته وان يحتد معلنا للرجل الذي يستجوبه انه مجرم حقير، او ان يقوم بصفعه على الاقل!!! اليس اول شرط للقيام بعمل مهني هو أخذ المسافة والحياد؟!

وهناك من سأله:" جعلت المسألة كلها متعلقة بالقوات اللبنانية، وبرّأت اسرائيل"! طبعا تورط القوات اللبنانية كان واضحاً من ضمن وضع المسؤولية على ايلي حبيقة، وهنا يتجدد الشعور بالغضب الذي انتاب اللبنانيين في حينه تجاه من نصب هذا القاتل الاصلي وزيراً وحاكما بأمره بما شكل انتهاكا لمشاعر اللبنانيين - مسلمين ومسيحيين معاً - عدا عن الضحايا من سكان صبرا وشاتيلا بمن فيهم الفلسطينيون واللبنانيون، اذ يجب الا ننسى ان اكثر من نصف الضحايا كانوا لبنانيين.

اما عن الدور الاسرائيلي فلقد كان واضحاً ولو بشكل حاذق ودقيق subtil، بمعنى ان الفيلم لا يبرئ احدا بل على الارجح يدين اكثر ما يدين اسرائيل ويجعل من القتلة الذين نفذوا المجزرة ضحايا بامتياز لتاريخهم الشخصي والمتعلق بظروف نشأتهم في الحرب ومن أسر فقيرة ومتفككة من جهة ولجهة تشبعهم بالخطاب الشوفيني المتعصب وبمشاعر الانتقام لبشير الجميل. وذلك كله تشارك فيه اللبنانيون على مختلف فئاتهم وطوائفهم وكل بحسب ابطاله وموقعهم ولو على درجات، فلا يستعجل أحد بتبرئة نفسه أو احد آخر.

ذلك ما جعل من مرتكبي المجازر مجرد ادوات عمياء قامت بتنفيذ خطة مدبرة جهزها الضباط الاسرائيليون لجهة إدارة المعركة عبر العديد من الاجتماعات التي أشير اليها مثلا بالاشارة الى مارون الذي كان مجرد ناقل للاوامر، سواء أكانت من إيلي حبيقة او ممن خلفه من الاسرائيليين؛ فعندما قال له احد منفذي المذبحة "سوف افعل كما تريد ما دمت تريده" رد قائلاً لست انا الذي يريد!!

هذا عدا عن تهيئة الاكياس البلاستيك التي سوف تحوي الجثث - التي سوف تتكدس وتهترئ بحيث تفح منها رائحة الموت- وقيل لهم عند السؤال عن وظيفتها: ضعوها جانبا الآن سوف تحتاجونها. كذلك الاشارة الى الحفر التي بدا انها كانت مهيأة والطرق التي رسمت لها خرائط. فالمنفذون لم يكونوا على دراية بالطرق على كل حال في ظل انقسام البيروتين، والى الكلس والأدوية الخاصة بالتطهير وما شابه.

لكن ذلك كله لا يظهر بوضوح. عليك الاعتماد على دقة الملاحظة والتوليف لاستعادة هذا الدور وهذا قد يصعب على المشاهد المتوسط. والسؤال هنا هل مارست الجهة الالمانية بعض الضغط للقيام بالرقابة حتى لا تظهر ادانة اسرائيل بوضوح؟ فكلنا يعلم حساسية الالمان ونقطة ضعفهم تجاه اللاسامية و"التابو" الذي تشكله اي اشارة قد تدين اليهود. واكتب اليهود لأنه حتى في ذهن مرتكبي المجزرة لم يكن الاسرائيلي سوى يهودي، ولقد "اضطر للتعامل معه، لكنه لم ينسَ انه يهودي قتل المسيح"... وكونه في ارض اسرائيل لا يمنع عنه صفته الاصلية كيهودي.

كل هذه المواد الموجودة في الفيلم تحمل في باطنها احتمالات تفجيرية كبيرة اذا لم تترافق مع تهيئة وشرح ومقدمة للفيلم تحذر من عنف الموضوع والمَشاهِد وتطلب اتخاذ المسافة الضرورية تجاه ما سوف يراه المُشاهِد وان الهدف من هذا الفيلم هو التعلم من ماضينا وليس الدعوة الى الانتقام.

المطلوب اذن التأكيد على ان الفيلم مادة للتأمل وللتعلم كي لا نعيد تكرار الاخطاء ولاتخاذ مسافة من ماضينا القريب والمتعلق بحروبنا الاهلية المتعددة الوجه والوظيفة، فصبرا وشاتيلا ليست سوى حلقة في مسلسلات العنف التي عانينا منها. المطلوب الخروج من دوامة العنف بدل التأسيس لعنف متجدد يطالب بالثأر. وهنا ربما يجدر بالقوات اللبنانية تقديم الاعتذار عن هذه المجازر، على الاقل بسبب ظهور الفيلم وكي تظهر هي ايضا انها اخذت مسافة من ماضيها ومن خطابها القديم وتؤسس لحاضر جديد توحيدي وقابل للآخر فعلا.

وربما يكون تعرض السيدة مي الشدياق الاعلامية البارزة للاعتداء الوحشي واللاانساني الذي تسبب لها بأذىً جسيم - ونسجل هنا كونها اول سيدة لبنانية وعربية (عدا عن العراق الذي كان السباق الى ذلك) تتعرض للاغتيال، ويا للاسف ان المساواة بين الجنسين في بلادنا بدأت تظهر على مستوى العنف والوحشية وليس على مستوى الحقوق والانسانية- هذا الاعتداء هو إذن درسنا الراهن على ان الجميع في لبنان مؤهل لان يكون ضحية للارهاب وللتعصب.

العزاء الوحيد من تعرض السيدة مي الشدياق للاعتداء هو استعادة تحرّك قوى 14 آذار التوحيدية والسيادية واللاطائفية من اجل استعادة زخم الانتفاضة وتفعيل القوى الشابة الفاعلة فيها والتي تسبق في وعيها الكثير من القيادات السياسية، تؤجج الخطاب والممارسات الطائفية ولا تبحث سوى عن مصالحها الضيقة. اتمنى ان تكون الحادثة والفيلم اذن مناسبة للتصالح والتصارح والاعتراف بالأخطاء والابتعاد عن جو العنف الذي ساد تاريخنا القريب.

استاذة في الجامعة اللبنانية

(*) "مقاتل" 98 دقيقة من اخراج: م. بورغمان وه. تايسن ول. سليم، عرض في فاعليات مهرجان حروب ذوي القربى بين 20 و25 ايلول في مسرح المدينة.